أولاً
مُقدِّمةٌ : القِصَّةُ، رُؤيَةٌ إسلامِيَّةٌ

إذا كان خَلق الإنسان الأول (آدم) عليه السلام، وحياته، قصةً مثيرة وطريفة فعلاً، فإن القرآن الكريم هو الذي تولَّى نقل هذه القصة للبشريَّة بأسلوب أدبي عالٍ، فقد صوَّر هذا الكتابُ المبارك حياةَ أبي البشر بمرحلتيها، الجِنَانيَّة: بما اتسمت به من صفاءٍ، ورخاءٍ، وطُهْرٍ ونقاءٍ، وسعادةٍ غامرةٍ وسلامٍ، والأرضيَّة: بما لابَسها من نقصٍ، وكدرةٍ وابتلاءٍ وشقاءٍ، وتوبةٍ وارتقاءٍ، ثم تابع رواية قصص بنيه على الأرض، بما صدر عنهم من خيرٍ وشرٍّ، وما ذاقوه من حلوٍ ومُرٍّ، وما عانوه من بلاء، أو تمتعوا به من نعيم، وقد جسَّد قصصه هذا الصدق الواقعي في أكمل صورة وأدقِّها.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧/٧].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: ٥/٢٧].

﴿إِنَّ هَذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٣/٦٢].

أما من الناحية الأسلوبية، فقد كانت قصصه جميعاً مثالاً للجمال التعبيري، والبلاغة، وحسن الشكل:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١٢/٣].

لذلك كان لهذا القصص دوره الفعّال في التأثير الأخلاقي، والنفسي والفكري، على من سِيقَ له، ففي مجال إثارة الحسّ الأخلاقي وشحذ ملكة الوعي لِعِبَرِ التاريخ ودلالات أحداثه نقرأ هذه الآية:

﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبابِ﴾ [يوسف: ١٢/١١١].

أمّا عن استخدام القصة وتوظيفها للدعم المعنوي، والشَّدِّ النفسي، وتثبيت القلوب على المبادئ، وتوطينها على تكاليفها، فتأتي هذه الإشارة القرآنية: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾ [هود: ١١/١٢٠].

كما تولَّت القصة القرآنية مَهَمَّةَ الدفع إلى التفكير والتأمُّل في مصائر الأمم التي تشكلت وفقاً لرؤاها ومواقفها في الحياة:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٦].

وقد ألمح (آدم ميتز) في كتابه (الحضارة الإسلاميَّة) إلى أن قصص القرآن كان له (أبلغ الأثر في انتشار الدين

الإسلاميّ والإيمان بمبادئه وتعاليمه)[1]، ولا عجبَ في ذلك ما دام هذا القصص يقدِّم لقارئه علاوةً على الحدث التاريخي: (تفسيراً مدهشاً لحقائق الحياة في جانبيها المشهود والمغيَّب، فيسمو بقارئه إلى الأفق الذي منه يطل على أصول الأشياء ونهاياتها، فيرى هناك نهرَ الحياة ينبع من عالم الغيب ليصبَّ في عالم الغيب)[2]، علاوة على ما يتمتع به هذا القصص من (درجةٍ فنيَّةٍ عاليةٍ)[3].

ورسول الله ﷺ قد أدرك بحسِّه النقي وحكمته النبوية أهميَّة القصص وأثَرها في تثبيت المفاهيم الإسلامية في عقول المؤمنين وقلوبهم، فقصَّ قَصَصاً كان على قِصَرِهِ وقلَّة تفاصيله متمتِّعاً بأغلب خصائص وسمات القصة القصيرة المعاصرة.

ثم إنَّ تاريخ أمة الإسلام لم يخلُ من قصصٍ بصرف النظر عن نضج هذا القصص الفنيّ، أو تعبير مضامينه عن رؤية الإسلام الشاملة الوسيعة للوجود والحياة والناس، أو تصويره التحليليّ لمشاعر المسلم وعوالمه الداخلية، النفسية

(١) محمد كامل حسين المحامي: القرآن والقصة الحديثة، ص٢٤.

(٢) محمد المجذوب: نظرات تحليلية في القصة القرآنية، ص١٢.

(٣) عبد الحميد جودة السحار: همزات الشياطين، ص١٩.

والروحيّة، والأخلاقيّة والفكريّة الرحيبة، أو استشرافها لمستقبل هذا الدين ومستقبل الإنسان في ظلّه، فقد أضافت (رسالة الغفران): (أبعاداً عميقة في التصور القصصي[1]، بينما اقتربت (حيّ بن يقظان) (لابن طفيل) من القصص العالمي الذي يحتفظ بمتانة البناء)[2]، ولا يُنكر أثرَهما في الآداب العالمية أيّ ناقد أو مؤرخ أدبٍ.

وعلاوة على هذين الأثرين القصصيَّيْن فإن التاريخ الأدبي للمسلمين لم يعدم قصصاً أبدعه خيال القصَّاصين بدوافع دينية، أو ما رووه عن الزهَّاد والصُّلحاء من مأثورات قصصيَّة، نستنتج من هذا العرض أنَّ هذه الأمَّة لم ترفض القصَّة جنساً أدبياً يوماً ما، وأنها إذا لجأت الآن إلى هذا الجنس وطرقت أبوابه الواسعة، لا تكون مقلّدة لغربٍ أو لشرقٍ[3]، إنَّما هي تحيي شكلاً أصيلاً من تراثها الأدبي له امتداد أصيل إلى جذورها الفكرية الخالصة، وإذا كانت القصّة الحديثة قد لابَسَتْها مضامينُ أهوائيّة مريضة، أو

(١) د. أحمد كمال زكي: دراسات في النقد الأدبي، ص٣٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) القصة في منهجها المعاصر لم تكن امتداداً لتراث أدبي، إنما ولدت تقليداً للغرب ثم تنبه الأدباء والباحثون بعد انتشارها إلى ما في تراثنا من القصة، وهذا ما قال به كثير من رواد القصة ومؤرخيها.

فكرية منحرفة، فليس ذلك من ذنوب القصَّة كشكلٍ فني، لأنَّ هذا الشكل مجرد وعاء يحمل ما يُلقى فيه من طيِّبٍ أو خبيثٍ، ولولا ذلك لما استعمله القرآن الكريم ورسول الإسلام ﷺ لتحقيق أهداف الدين الحقّ.

وإذا كان هناك من يزعم بأن أمّة الرسالة لا يناسب عقليتها ونفسيّتها هذا اللونُ الفني، لكونها مَيّالة إلى التجريد والاختصار والواقعيّة والوضوح، غير راغبة في متابعة الأحداث القصصيَّة المسرودة، وتَأمُّل الأوصاف المسهبة، وفكِّ العقد القصصيَّة، فإن ما يردُّ هذا الزعمَ من واقع هذه الأمة التاريخيّ ما نعلمه من أمرها حين انساحت من أرض الصحراء مترامية الأبعاد ذات السعة، والصفاء السماويّ، والتجانس الجغرافي؛ إلى عالم الله الرحيب في الأندلس، ومصر، والشمال الإفريقيّ، والهلال الخصيب، وغيرها من أصقاع الأرض المنوَّعة تضاريسها وأجواؤها ومناخاتها؛ حيث كلّ عوامل التشجيع والإثارة على إبداع الأعمال الروائيَّة والقصصيَّة، مع ما تبع ذلك الانسياح من تفاعل أبناء هذه الأمَّة مع معطيات الشعوب (الفكريَّة) المتنوعة وأجناسها الأدبية وتقاليدها، وقيمها وحقائقها، وأساطيرها ورموزها، وحياتها الشعوريَّة واللا

شعوريَّة، تفاعلاً جعلَ هذه الأمَّة الحية الخصبة مجمعَ ثقافات الأمم والتعبير المشروع عن تطلُّعاتها الأدبيَّة، وأجدرَ من يتذوق كلّ الألوان الفنية التي تنسجم مع رؤيتها للوجود، ويبدع في إنتاجها..

فأمَّة الرسالة قبل الإسلام هي غيرها بعد احتكاكها مع بيئات الشعوب الأخرى المادِّيَّة والمعنويَّة.. وليس حتماً مقضياً أن تبقى هذه الأمة بنفس ذوق الصحراء وتصوُّرها وتخيُّلها..

أما إذا كان كلّ هذا التفاعل لم ينتج أدباً قصصياً ناضجاً فنيّاً وموضوعيّاً، ومعبِّراً تعبيراً شاملاً ومتدفقاً وأصيلاً عن الرؤية الإسلامية الواقعية أو الغيبية الشاملة، فإنَّ مردَّ هذا الأمر قد يكون أسباباً تقنية أو تاريخية معينة، وليست إحدى هذه الأسباب مطلقاً عقم هذه الأمة أو غيرها من أمم الإسلام عن إبداع الألوان الأدبيَّة البحتة والحيادية، أو عجزها عن توظيفها واستخدامها لنقل معتقداتها وقيمها ورؤاها وأحاسيسِها إلى أهل الأرض..

ومحاولةً منّا لتعميق هذا المسار، نقدِّم تحليلاً لقصة يوسف نموذجاً للقصة القرآنية التاريخية عسى أن تنفع

القاصّ المسلم، وقد اخترناها من بين سائر قَصَص القرآن الكريم لأسباب أهمها:

طولها النسبيّ، واستيعابها لعناصر القصة الضرورية ممّا هو متناثر فيما سواها من القصص. وليس غرضنا من هذا التقديم أن نشدَّ القاصّ المسلم إلى نمط هذه القصة الأسلوبي شدّاً لا فكاك له منه، أو أن نحرمه من إبداع ألوان من القصة غير اللَّون التاريخي، فالواقع الإسلامي وغير الإسلاميّ، زاخر بالأحداث التي يوسع القاصّ روايتها وتصويرها وتحليلها وتوظيفها لبيان جمال الخير وعبقه، وقبح الشرّ ودمامته وظلمته.

وقبلَ الخوض في البحث نشير إلى ملاحظة مهمة متعلقة به وهي: أنَّه لا يشترط أن تنطبق سائر مواصفات القصة القصيرة المعاصرة على هذه القصَّة لكي نعتبرها قصةً ناجحةً، فالقصة المعاصرة وليدة تطوُّرٍ تقنيٍّ مستمرٍّ وصقلٍ بشريٍّ متواصلٍ، لكنَّها مع ذلك لا تبلغ مستوى هذه القصَّة - المعجزة - إذ لا يقاس عملُ الإنسان بعمل الخالق، وقد سبقت هذه القصة جمالياً كلَّ قصصِ هذا العصر في احتوائها وتضمنها لكلِّ العناصر الضرورية للقصة قبل أن تستوي قصة البشر على سوقها وتقوم على أصولها المعتمدة حديثاً،

وستبقى هذه القصة أيضاً على مدى الزمن الآتي - حيث قد تتغير أذواق الناس اليوم أو غداً وتتعدد اجتهاداتهم - لتلبيَ حاجة الإنسان إلى القصَّة الهادفة أولاً، وليكون لأهل القصة من بعد - نقّاداً وقصّاصين وإلى الأبدِ - النموذجَ المعجزَ الذي يحتوي الناقد في تقويمه للأعمال القصصيَّة، ويلهم القاصّ روح الأصالة والجمال فيما يبدعه من أشكال القصَّة والرواية.

* * *